من فوقها وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر وعلى الجملة فما من كوكب من الكواكب إلاّ ولله تعالى فيه حكم كثيرة . وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنيّ فتراه مزوقا بالصبغ مموّها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أصنافه وغرائب حيواناته ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه ليس لك هم إلاّ شهوتك اشتغلت بأنواع الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض . فاستكثر من معرفة عجيب صنع الله تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم . والله الملهم *

كتاب ذكر الموت وما بعده

﴿ فضل ذكر الموت ﴾

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ أكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هاذِمِ اللّذّاتِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ أكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فإنّهُ يُمَحِّصُ الذّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فى الدّنيا ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظاً ﴾ وعنه ﴿ أكْيَسُ النّاسِ أكثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلموتِ وَأشَدُّهُمُ استِعْدَادًا لهُ أولئِكَ هُمُ الأكياسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدّنيا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ ﴾

وعن عبد الله بن مطرّف قال : ان هذا الموت قد نغص على أهل

النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه *

واعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذُكّر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم الناس إما منهمك واما تائب مبتدئ واما عارف منته . أما المنهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة . وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعد لقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ثم ان أنجع طريق في ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور ومهما طالب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير

اليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا ثم بكى رحمه الله تعالى *

﴿ فضيلة قصر الأمل ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر ﴿ إذَا أصبَحْتَ فَلا تنتَظِرِ المَساءَ وَإذا أمسَيْتَ فَلا تَنتَظِرِ الصَّباحَ وخُذْ مِنْ حَياتِكَ لِمَوتِكَ وَمِنْ صِحّتِكَ لِسُقْمِكَ ﴾ وعن علىّ رضى الله عنه رفعه : ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الأمل فانه الحب للدنيا *

وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد فان الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ومن ليل ونهار فلا يقدر نزول الموت به مع رؤياه من مات بين يديه ولا يقدر أن تشيع جنازته وهو لا يزال يشيع الجنائز فما أغفله وما أجهله فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابدّ وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولا علاج لذلك إلاّ الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب فمهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير *

﴿ المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إغتَنِمْ خَمساً قَبلَ خَمسٍ

شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ﴾ أى أنه لا يفتنهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها الى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ يعنى الانفاس . آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك . آخر العدد دخولك فى قبرك *

وسبب التأخير هو الانس بالدنيا وشهواتها والتسويف فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض فى شغل إلاّ ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل الى شغل بل الى أشغال الى أن تخطفه المنية فى وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف . والمسوّف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا . وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا فراغ قط وهيهات . فما يفرغ منها إلاّ من أطرحها *

فما قضى أحد منها لبانته ... وما انتهى أرب إلاّ الى أرب

نسأله تعالى أن لا يجعل لنا بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء *

﴿ بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور ﴾

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ويتكدّر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب يليه سرور لا تدرى متى يغشاك *

واعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لا لأهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها إلاّ قسوة لأنهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون . ولا يحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون . أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون . ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا يحسبون . فبطل حسبانهم . وانقرض على القرب زمانهم . فلا ينظر عبد الى جنازة إلاّ ويقدّر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكان قد . ولعله فى غد وبعد غد . قال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلاّ متقنعا باكيا . فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة إلاّ وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلاّ فى ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلاّ فى الحيلة التى بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم الى ماشاء الله فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلاّ قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهوا ونغفل ونشتغل

بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة *

(فمن آداب حضور الجنازة) التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا يدرى حقيقتها *

(وأما زيارة القبور) فهى مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد . وأما النساء فلا يبقى خيرُ زيارتهنّ بشرّها لأنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها نعم لا بأس بخروج المرأة فى ثياب بذلة تردّ أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر *

والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً لوجه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء الى القبر فيقول السلام على النبي * السلام على أبى بكر * السلام على أبى وينصرف وكان بعض السلف إذا وقف على باب المقابر يقول : آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيّآتكم وقبل الله حسناتكم . فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها والمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار به بأن يتصور فى

قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به ويستحب الثناء على الميت وأن لايذكر إلاّ بالجميل . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاتَسُبُّوا الأمواتَ فإنّهم قد أفضَوْا إلى ماقدَّمُوا ﴾ *

﴿ بيان المأثور عند موت الولد ﴾

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر فسبقه الولد الى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لايعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلاّ تقدم وتأخر . وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى أن يلحق المتأخر . واذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه . لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب فمن أبى هريرة رفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ لَسَقطٌ أقدِّمُهُ بينَ يدَىَّ أحبُّ إلىَّ مِن فارِسٍ أخلِّفُهُ خَلفى ﴾ وانما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لايَموتُ لِأحَدٍ مِنَ المُسلمينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فيَحتَسِبُهُم إلاّ كانوا لهُ جُنَّةً مِنَ النّارِ ﴾ فقالت امرأة أو اثنان يارسول الله قال ﴿ أوِ اثنانِ ﴾ وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقربه الى الاجابة وقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد غفرت ماوجب لى عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فانك أجود وأكرم ووقف اعرابى على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد وهبت له ماقصر فيه من برى فهب له ماقصر فيه من طاعتك وينبغى أن يتذكر عند موت الولد الفجائع

الكبرى ليتسلى بها عن شدّة الجزع فما من مصيبة إلاّ ويتصوّر ماهو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

﴿ ذكرى مابعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة ﴾

كما أن للموت شدّة في أحواله وسكراته وخطرًا في خوف العاقبة كذلك الخطر في مقاساة ظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مفضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد واما بالاشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابدّ لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها . وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدّة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ماتكتنفه من المصاعب والاهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم . ومَنْ أُخبِرَ بأن مابين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مدّ يده لتناوله كان مصدّقا بلسانه ومكذّبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . فمثل نفسك وقد بعثت من قبرك مبهوتا من شدّة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي

طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الرعب مضافا الى ماكان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم إنتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم فكيف حالك وحال قلبك هنالك وقد بدّلت الأرض غير الأرض والسموات وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة وازدحموا في الموقف شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم . فتأمل يامسكين في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه والخجلة والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى وأنت عار مكشوف ذليل متحير مبهوت منتظر لما يجرى عليك القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم بهذه الحال فانها عظيمة واستعدّ لهذا اليوم العظيم شأنه القاهر سلطانه القريب أوانه . يوم تذهل فيه كلّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزواهر قد انكدرت والشمس قد كوّرت والجبال قد سيّرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الأبدان قد زوّجت والجحيم قد سعرت والجنة قد أزلفت *

وقد وصف الله بعض دواهي يوم القيامة وأكثر من أساميه لتقف

بكثرة أسامیه على كثرة معانيه فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامي والالقاب بل الغرض تنبيه أولى الالباب فتحت كل اسمٍ من أسماء القيامة سرّ وفي كلّ نعت من نعوتها معنًى فاحرص على معرفة معانيها فمن أسامیها يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم الزلزلة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الغاشية ويوم الراجفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم التناد ويوم الجزاء ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الخزي ويوم عسير ويوم الدّين ويوم النشور ويوم الخلود ويوم لاريب فيه ويوم لاتجزى نفس عن نفس شيأ ويوم تشخص فيه الابصار ويوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه يوم لاينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم *

فالويل كل الويل للغافلين . يرسل الله لنا سيد المرسلين . وينزل عليه الكتاب المبين . ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين . ثم يعرفنا غفلتنا ويقول ﴿ إقتَرَبَ لِلناسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلَةٍ مُعْرِضُونَ مايأْتِيهِم من ذِكرٍ مِن رَبّهِم مُحدَثٍ إلاّ استَمَعُوهُ وَهُم يَلعَبُونَ لاَهِيَةً قُلوبُهُم ﴾ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ﴿ إقتَرَبَتِ السّاعَةُ وانشقّ القَمَرُ . إنّهم يَرَونَهُ بَعيدًا ونَرَاهُ قَرِيباً . وَما يُدرِيكَ لعَلّ السّاعَةَ تكُونُ قَرِيبًا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه . ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله

من هذه الغفلة ان لم يتداركنا الله بواسع رحمته *

﴿ صفة السؤال ﴾

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الاحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينما أنت فى كرب القامية وعرقها وشدة عظامها اذ نزلت ملائكة من ارجاء السماء الى موقف العرض على الجبار فيقومون صفا صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وينادون واحدا بعد واحد فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقتِ الأرضُ بنورِ ربّها ﴾ وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسائلة العباد وظن كل واحد انه ما يراه أحد سواه . وانه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه . فيبدأ سبحانه بالانبياء ﴿ يومَ يجمعُ اللهُ الرُّسلَ فيقولُ ماذا أُجبتم قالوا لا علمَ لنا إنّكَ أنتَ علّامُ الغيوبِ ﴾ فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء من شدة الهيبة . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سرّه وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يشهد عليك انعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف

لك عن مساويها فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه بأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول وفي الخبر ﴿ لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم ﴾ فأعظم يامسكين بحياتك عند ذلك وبخطرك ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان . وتطاير الكتب الى الشمائل والايمان ﴿ فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية ﴾ *

﴿ صفة الخصماء ورد المظالم ﴾

إعلم انه لاينجو من خطر الميزان الا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته . وانما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أن يموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري وهذا يقول عاملتني فغششتني وهذا يقول أخفيت عيب سلعتك عني وهذا يقول كذبت في سعر متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجاً وأنت غني فما أكرمتني وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عني فما راعيتني فينما أنت كذلك وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبهم وأنت

مبهوت متحير من كثرتهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليومَ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ لا ظُلمَ اليومَ ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك وتتذكر ما أنذرك الله على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عمّا يعملُ الظّالمُونَ إنّما يؤخّرُهُمْ ليومٍ تشخصُ فيهِ الأبصارُ مُهطعينَ مُقنعي رُؤسِهِم لا يرتدُّ إليهم طرفُهم وأفئدتُهم هواءٌ ﴾ فما أشد ترحك اليوم بتمضمضك باعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم اذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك . فاحذر من التعرض لسخط الله وعقابه الاليم . واستقم على صراطه المستقيم . فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا . ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا . وأثقل ظهره بالاوزار وعصى . تعثر فى أوّل قدم من الصراط وتردى *

﴿ القول فى أهوال جهنم وقانا الله عذابها ﴾

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع اذ قال سبحانه ﴿ وإن منكم إلاّ واردُها كانَ على ربّكَ حتماً مقضيًّا . ثمّ ننجّي الّذينَ اتّقوا ونذرُ الظّالمينَ فيها جثيًّا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فمساك تستعد للنجاة منه وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا فبينما هم فى كربها وأهوالها

وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها . وتشفيع شفعائها . إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب . وأظلت عليهم نار ذات لهب . وسمعوا لها زفيرًا يفصح عن شدّة الغيظ والغضب . فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب . وجثت الأمم على الركب . حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب . فهناك تسوق الزّبانية المجرمين إلى العذاب الشديد وينكسونه فى قعر الجحيم . ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم . فاسكنوا دارًا يخلد فيها الأسير . ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم . ومستقرّهم الجحيم . شدّت أقدامهم الى النواصى . واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى . ينادون من أكنافها . ويصيحون في نواحيها وأطرافها . يامالك قد نضجت منا الجلود . يامالك أخرجنا منها فانا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرّطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف يدعون بالويل والثبور وتغلى بهم النار كغلى القدور تهشم بمقامع الحديد جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت اليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواد من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وكسرت عظامهم ومزقت جلودهم ولهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيّات الهاوية وعقاربها منشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

فكما أن اكتساب الناس على الدُّنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرّة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلاّ أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدُّنيا لافتدى بها من شدّة ما هو فيه . فيالحسرة هؤلاء وقد باعوا بها باعوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدُّنيا ولذّاتها *

فانظر يامسكين في هذه الأهوال والعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدُّنيا ولست تدري بماذا سبق القضاء في حقك (فان قلت) فليت شعري ماذا موردي والى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء في حقي فلك علامة تستأنس بها وتصدّق رجاءك بسببها وهو أن تنظر الى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر فانك مبعد عن النار وان كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرًّا إلاّ ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضيٌّ عليك . فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدُّخان على النار فقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين . وقد عرفت مستقرّك من الدّارين *

﴿ صفة الجنة وأصناف نعيمها ﴾

اعلم أن تلك الدّار التي عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى فتأمل

في نعيمها وسرورها . فان من بعد من احداهما استقرّ لا محالة في الأخرى فسق نفسك بسوط التقوى لتنال الملك العظيم . وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهنّ الياقوت والمرجان لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لايخافون فيها ولا يحزنون ومن ريب المنون آمنون فياعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لايموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها . والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرًا بأن يهجر الدُّنيا بسببها وأن لايؤثر عليها ما التصرّم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون والى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لاينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن . فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ ﴾ الى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة وسورة الانسان . وغيرها من السور . ففيها مايدلك على أن ثمة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كما ورد في الاثر . ويكفي

من الاطلاع على جملتها ما بينا وقد ورد فى تفصيل صفاتها كثير من الاخبار المدوّنة فى الاسفار الكبار . واعلم أن درجات الآخرة متفاوتة فان الاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يُجازَوْنَ به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل . ونعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل . ونستغفرك من كلّ مازلت به القدم . أو طغى به القلم . يا واسع المغفرة يا أرحم الرّاحمين *

قال مؤلفه

تم بحمده تعالى إختصار ﴿إحياء علوم الدّين﴾ ليلة الجمعة السادسة عشرة من ربيع الثانى قبيل العشاء سنة ١٣٢٤ هـ . فى دارنا ظاهر باب الجابية فى زقاق العلامة المكتبى على يد جامعه الفقير ﴿محمد جمال الدّين﴾ ابن محمد سعيد ابن قاسم بن صالح القاسمى الدمشقى عفا المولى عن زلله . بمنه وفضله آمين *

خاتمة الكتاب لناشره

نحمد ربنا العليّ الكبير ونشكره على ما وهبنا من العقل والتفكير للإرشاد والتبشير حتى لا تسري الغفلة من الصغير إلى الكبير ونصلّي ونسلّم على نبيه البشير النذير .وعلى آله وأصحابه أولي الفضل الخطير *

﴿ أمّا بعد ﴾ فإنّ أفضل ماوعظ به المتقون ووصل به العارفون كتاب الله وسنّة نبيه وهَدْي الرّاشدين من بعده فطوبى لمن اتّعظ وبشرى لمن استيقظ واستعدّ لمآبه وإيابه إلى ربه بالأعمال الصالحة والنّظر في آياته الواضحة حتى استنار وأنار الطرق للطالبين ويا سعادة من نصب نفسه للإفادة وقوّمها بالاستفادة فذلك مقام الأنبياء والمرسلين وقد حذا حذوهم العارفون واستمدّ بنور معارفهم العالمون فأوضحوا ما ستروه وفصّلوا ما أجملوه حتى ارضوا ربّهم وضميرهم وقابلوه بوجوه بيضاء وقلوب سليمة نوراء قد أعدّ لهم أحسن الجزاء وكان في مقدّمتهم بل واسطة عقد سعادتهم (الإمام الغزالي) حيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلاّ أنارها وأوضحها ووقف حياته خدمة للدّين وموعظة المؤمنين وتمحيصاً للحقائق من شبهات المرتابين فألّف ووضح وبيّن وأفصح حتى تلاشت الشبهات وأتى بالآيات البيّنات فاستحق أن يسمّى بحجة الإسلام وإمام المسلمين وكان من أجمع كتبه للحقائق وأنفعها في كشف الغوامض والدقائق كتابه ﴿ إحياء العلوم ﴾ غير أنه لا يخلو من أبحاث علمية ومواضيع فلسفية تعزب

عن معرفتها عامة المؤمنين ويبعد عن تناولها أفهام القاصرين فكان محتاجا لتمحيصه من المباحث وتخليصه من مواضع الخوض فى بحار الجدل وتشريح المسائل فى الردّ على المبطلين ودحضه حجج المرتابين ليكون مَعيناً عذباً للواردين وعسلا مصفّى للشاربين وقد تمنى مثل هذا العمل المبرور والسعي المشكور حضرة المرحوم الأستاذ الامام الشيخ (محمد عبده) مفتى مصر سابقاً وصرّح بحاجة الأمة الاسلامية الى اختصار كتاب الاحياء والاكتفاء من مواضعه وأبحاثه بالقدر الذى يسهل فهمه على عموم الطبقات ولا يصعب دركه على غير المشتغلين باللغويّات والاصطلاحات وكان ذلك بحضرة الأستاذ الكبير والعالم العارف الشهير صاحب هذا المختصر النفيس حضرة (الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى) رضى الله عنه أيّام ان كان نزيلا عنده كما أشار الى ذلك فى خطبته فتوافقا على حسن هذا العمل ولزومه للأمة فى هذا الزّمن فأخذ على عاتقه هذا العمل المبرور حضرة الأستاذ القاسمى المذكور فصنّف مختصره الموسوم *

موعظة المؤمنين * من احياء علوم الدين

فجاء بحمد الله سفينة الواعظ وعجالة المرشد وجعبة النّصوح وتذكرة الدعوة وموعظة المؤمنين وروح الاحياء صنفه بعد الرويّة واستقراء حال الأمم من مسلميهم وبعد أن عبر بواطن قلوبهم مستطلعا * وخاض فى بحر أحوالهم مستخبرا * أىُّ الدواء أنجع وأىُّ العلاج أنفع فلذلك قام بهذه الخدمة الدينية ولا أخال الا أن الغزالي نفث فى روعه ليكتب أو أملى عليه

ماينا سب العصر ليستخلصه حتى أتم كما أرادا معاً * واتفقا عليه وضعاً * وأتاح الله الأسباب لنشره وسهّل طريق طبعه انفع الأمة أن قد تشرّفتُ بمقابلة حضرة مؤلفه وتذاكرنا معه فيما ينفع الأمة ويهمّ العامة من الوعظ والارشاد

ولما رأى شغفى لنشر أمثال تلكم المواضيع النافعة سمحت نفسه الكبيرة وارتاح ضميره الى اهدائى هذا الكتاب المستطاب لأنه من أنفع ما يهدى لأولى الالباب فى هذا الزمن خصوصاً وهو يرد شبو بيّة الدين بعد شيخوخته وينهض بالعالم الاسلامى من وهدته وسقطته فتقبلته منه شاكرا لأنعمه ومكثت أترقب المكنة لنشره وانتهز الفرص لطبعه فوافق حظّ الوعظ ان ذكرت ذلك لحضرة الأديب الفاضل الذى لم يجد طريقاً للخير إلاّ سلكه حضرة (محمد أفندى اسماعيل) صاحب الأيادى البيضاء على الادب وذويه فنشط فى الفور وأخذ على عهدته مساعدتى على طبعه ونشره بمطبعته العامرة ﴿ مطبعة السعادة ﴾ وكان سبباً قويّا لاخراجه الى عالم المطبوعات كتابا جاء بهجة لذوى الافكار والابصار قد اعتُنى بطبعه على ورق جيّد وحروف جميلة مع ضبط الشكل للآيات والأحاديث وساعدنى على تصحيحه جماعة من فضلاء العلماء حتى جاء كتابا لم يسبق له نظير صحةً وجمالاً وقد أعطى لنا حضرة مؤلفه حقوق الطبع حتى لايعاد طبعه الا بمعرفتنا . فنشكره على هذه العناية فى البداية والنهاية *

محيي الدين صبرى

الكردى